وسم الفقيه

وسمت المتفقه

تأليف

د. أحمد بن صالح الزهراني

أوراق عربية

مؤسسة الأوراق الثقافية للنشر الإلكتروني

حقوق النسخ والانتفاع بالكتاب بأي صورة إلكترونية أو ورقية أو أي وسيلة أخرى محفوظة لمنصة أوراق عربية ويُحظر تداول المادة بأي شكل دون إذن من الناشر أو المؤلف

١٤٤٤ هـ

٢٠٢٣م

جميع الحقوق محفوظة

منصّة أوراق عربية - www.aawraq.com

أحد مشاريع مؤسسة الأوراق الثقافية للنشر الإلكتروني.

ترخيص وزارة الإعلام رقم (١٤٩٨٣٧)

موقعها الجغرافي : جدة – المملكة العربية السعودية

هاتف: (٠٥٤٤٥٠٢٤٨٣)

البريد الإلكتروني للمؤسسة والمنصة: info@aawraq.com

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمنصة (أوراق عربية)

حقوق النشر الخاصة بالكتاب محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع : ١٤٢٤/٤٤٢٩ ردمك : ٩٩٦٠-١٠-٦٥٠-٠

تنبيه:

الآراء المنشورة في الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ومنصة (أوراق عربية) لا تتحمل أي مسؤولية أدبية أو قانونية مترتبة عليها.

وسم الفقيه
وسمت المتفقه

مقدمة

الحمدلله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

* فصل: في فضل العلم وأهله.

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزُّمَر:٩][1].

---

(١) قال القاسمي – رحمه الله –: «في الآية إشعار بأنّ الّذين يعلمون هم العاملون بعلمهم، إذ عبر عنهم أوّلاً بـ(القانت) ثم نفى المساواة بينه وبين غيره ليكون تأكيداً له، وتصريحاً بأنّ غير العامل كأن ليس بعالم، قال القاشاني: وإنّما كان المطيع هو العالم، لأن العلم هو الّذي رسخ في القلب وتأصل بعروقه في النفس، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته بل سيط باللحم والدّم، فظهر أثره في الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه، وأمّا المرتسم في حيز التّخيل بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه فليس بعلم، إنّما هو أمر تصوري لا يغذو القلب ولا يسمن ولا يغني من جوع» محاسن التأويل(٦/ ١١٥) بتصرف يسير.

وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤][(١)]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨][(٢)]، وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، قال ابن عباس[(٣)] في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٨٠]: أي: «حُكماء عُلماء حُلماء»[(٤)].

وقال الحسن[(٥)] وغيره: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾: «فقهاء علماء»[(٦)].

وعن يحيى بن أبي كثير[(٧)] في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ

---

(١) أي: قُل يا رب زدني منك علماً، قال ابن عيينة: ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتّى توفّاه الله عزوجل، ورُوي أنّه ﷺ كان يقول: «اللهم انفعني بما علّمتني وعلمني ما ينفعني، والحمدلله على كل حال» تفسير ابن كثير (٥/٣١٩)، والحديث صحّحه الألباني – رحمه الله – دون زيادة الحمد، انظر الصّحيحة (٣١٥١).

(٢) قال القرطبي – رحمه الله –: «يعني بالعلماء الّذين يخافون قدرته، فمن علم أنّ الله عزوجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية» ثم ساق عن ابن عباس قوله: العلماء: الذين علموا أن الله على كل شيء قدير، الجامع لأحكام القرآن(١٤/٢١٩).

(٣) عبدالله بن عبّاس بن عبدالمطّلب، ابن عمّ النّبيّ ﷺ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ودعا له النّبيّ ﷺ بالفهم في القرآن فكان يُسمّى البحر والحبر لسعة علمه، أحد المكثرين من الصّحابة مات سنة (٦٨)هـ بالطّائف، الإصابة (٤/١٤١).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/٦٦).

(٥) الحسن بن أبي الحسن البصري، واسم أبيه يسار الأنصاري مولاهم، ثقة فقيه فاضل مشهور، من خيار التّابعين توفّي سنة (١١٠)هـ ترجمته في التهذيب والسير وغيرهما.

(٦) تفسير ابن كثير (٢/٦٦).

(٧) الإمام الحافظ أبو نصر الطّائي مولاهم اليمامي، مُختلفٌ في اسم أبيه، كان طلاّبةً للعلم حجّة، قال أبو حاتم: هو إمام وقد نالته محنة وضُرب لكلامه في ولاة الجور، قال ابن حبّان: كان من العبّاد، إذا حضر جنازة لم يتعشّ تلك الليلة =

﴿وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾[الكهف:٢٨] قال: «مجالس الفقه»[١]، وعن مجاهد[٢] في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾[البقرة:٢٦٩] قال: «ليست بالنّبوّة؛ ولكن الفقه والعلم»[٣].

= ولا يكلّمه أحد، روى ابنه عنه قوله: لا يُستطاع العلم براحة الجسد، وعنه قوله: إذا رأيت المبتدع في طريق فخذ في غيره، توفّي – رحمه الله – سنة (١٢٩)هـ السّير (٦/ ٢٧).

(١) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي (ص١٢)، وهذا أحد الأقوال، وقيل: ذكر الله، وقيل قراءة القرآن، والصواب أنّ لفظ الآية يحتمل كل تلك الأقوال ومنها التفاوض في الحلال والحرام كما ورد عن سعيد بن جبير، انظر تفسير الآيةفي تفسير الطبري.

(٢) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكّي، الإمام شيخ القرّاء والمفسّرين، روى عن ابن عبّاس وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه، وعن غيره من الصّحابة، حدث عن نفسه قال: عرضتُ القرآنَ على ابن عباس ثلاثين مرّة، وقال: عرضت القرآن على ابن عبّاس ثلاث عرضات أقفه عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت، قال الأعمش: كان مجاهد كأنّه حمّال فإذا نطق خرج من فيه اللّؤلؤ، توفّي – رحمه الله – سنة (١٠٤)هـ على الأرجح، السّير(٤/ ٤٤٩).

(٣) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص١٦، قال القرطبي – رحمه الله –: «اختلف العلماء في الحكمة هنا: فقال السّدّي: هي النبوّة، وقال ابن عبّاس: هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وغريبه ومقدمه ومؤخره، وقال قتادة ومجاهد: الحكمة هي الفقه في القرآن، وقال مجاهد: الإصابة في القول والعمل، وقال ابن زيد: الحكمة: العقل في الدين، وقال مالك بن أنس: الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع له»، ثم قال: وهذه الأقوال كلها ما عدا السدّي قريب بعضها من بعض؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في قول أو فعل، فكل ما ذُكر فهو نوع من الحكمة الّتي هي الجنس... وأصل الحكمة ما يمتنع به من السّفه، فقيل للعلم: حكمة؛لأنه يمتنع به وبه يعلم الامتناع من السفه وهو كل فعل قبيح، وكذا القرآن والعقل والفهم وفي البخاري: «من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدين» وقال هنا: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ الجامع(٣/ ٢١٤).

وقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم»[١].

قال ابن المبارك[٢]: «هو أن يقع الرّجل في شيء من أمر دينه يسأل عنه»[٣].

وقال أيضاً: «أن لا يقدم الرّجل على الشّيء إلاّ بعلم يسأل ويتعلّم فهذا الّذي يجب على النّاس من العلم»[٤].

قال إسحاق بن راهويه[٥]: «طلب العلم واجب ولم يصحّ فيه خبر»[٦].

وقال النّبيّ ﷺ: «لأن أقعد مع قومٍ يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس؛ أحبّ إليّ من أن أعتق أربعةً من ولد إسماعيل، ولأن أقعد مع قومٍ يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (ح ٢٢٤) عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – وصحّحه الألباني في صحيح الجامع(٣٩١٣).

(٢) عبدالله بن المبارك بن واضح الإمام شيخ الإسلام، وأمير الأتقياء في وقته، أبو عبدالرحمن الحنظلي مولاهم التركي ثم المروزي، الحافظ الغازي أحد الأعلام، قيل: ما لقي ابن المبارك رجلاً إلا وابن المبارك أفضل منه، قال العباس بن مصعب: جمع ابن المبارك الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء والتجارة والمحبة عند الفرق، وقيل: ابن المبارك في المحدّثين مثل أمير المؤمنين في النّاس، توفي – رحمه الله – سنة (١٨١) هـ السير (٨/٣٧٨).

(٣) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(٢٧).

(٤) السابق ص(٢٧).

(٥) الإمام الكبير شيخ المشرق سيّد الحفّاظ أبو يعقوب الحنظلي المروزي، وقيل لأبيه راهوية لأنّه وُلد في الطّريق فأطلق المراوزة عليه هذا، قال يحيى بن يحيى: ليوم من إسحاق أحب إليّ من عمري، قال الدارمي: ساد إسحاق أهل المشرق بصدقه، وقال عن نفسه: أحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر قلبي، توفّي سنة (٢٣٨)، السير (١١/٣٥٨).

(٦) جامع بيان العلم ص(٢٩)، أي لم يصح في وجوب طلب العلم.

الشمس أحبّ إليّ من أن أعتق أربعة»[١].

قال يزيد الرّقاشي[٢]: «كان أنس بن مالك إذا حدّث بهذا الحديث أقبلَ عليّ وقال: والله ما هو بالّذي تصنع أنت وأصحابك، ولكنّهم قوم يتعلّمون القرآن والفقه»[٣].

وقال عليه الصلاة والسّلام: «فضلُ العالم على العابِد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[٤].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: «لأن أعلمَ باباً من العلم أمر ونهي أحبّ إليّ من سبعين غزوة في سبيل الله»[٥].

قال ابن مسعود[٦] – رضي الله عنه –: «المتّقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة»[٧].

---

(١) أخرجه أبو داود(ح٣٦٦٧)، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (ح٥٠٣٦).

(٢) الصّالح الباكي، والصّائم الظّامي يزيد بن أبان الرّقاشي، كما قال أبو نعيم في الحلية، من أقواله: للأبرار همم تبلّغهم أعمال البر، وكفى بهمّة دعتك إلى الخير خيراً، توفّي قبل سنة (١٢٠)هـ الحلية(٣/ ٥٠).

(٣) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(١٢).

(٤) أخرجه الترمذي في العلم(ح٢٦٨٢) وأبو داود في العلم (ح٣٦٤١) وابن ماجه في المقدمة (ح٢٢٢) وأحمد(ح ٢١٢٠٨) وغيرهم عن أبي الدرداء، وحسّنه الألبان٣ي في صحيح الجامع (ح٦٢٩٧).

(٥) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(١٢).

(٦) الصّحابي الجليل الفقيه عبدالله بن مسعود بن غافل الهذلي أبو عبدالرحمن، أسلم هو وأمّه قديماً وهاجر الهجرتين وشهد بدراً والمشاهد بعدها ولازم النّبيّ ﷺ وكان صاحب نعليه، قال عنه النّبيّ ﷺ: من سره أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد، وقال عن ساقيه وقد سخر منهما البعض لدقّتهما: «إنّهما أثقل في الميزان من جبل أحد»،توفّي رضي الله عنه سنة (٣٢)هـ على الصحيح، الإصابة(٤/ ٢٣٣).

(٧) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(٢٠).

وقال ابن عيينة[١]: «أعظم النّاس منزلةً من كان بين الله وبين خلقه: الأنبياء والعلماء»[٢].

وكان أبو الدّرداء[٣] يقول: «وما نحن لولا كلمات الفقهاء»[٤].

وعن الحسن البصري قال: «لأن أتعلّم باباً من العلم فأعلّمه مسلماً أحبّ إليّ من أن تكون لي الدّنيا كلّها أجعلها في سبيل الله»[٥]، وقال أبو هريرة – رضي الله عنه –: «لأن أفقه ساعة أحبّ إليّ من أن أحيي ليلة أصلّيها حتّى أصبح»[٦]، وقال الزّهري[٧]: «ما عُبد الله بمثل الفقه»[٨].

---

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي أبو محمّد الكوفي ثم المكّي، الإمام الكبير حافظ العصر شيخ الإسلام، مولده بالكوفة، طلب العلم وهو غلام ولقي الكبار وحمل عنهم وجوّد وأتقن وعُمّر دهراً وانتهى إليه علوّ الإسناد ورُحل إليه من البلاد، قال الشّافعي: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز، بقي إماماً أربعين سنة، توفّي – رحمه الله – سنة (١٩٨)هـ السّير (٨/ ٤٥٤).

(٢) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(٢١).

(٣) عويمر، صحابي جليل مختلف في اسمه واسم أبيه، أسلم يوم بدر وشهد أحداً وما بعدها، عابد مشهور توفّي في خلافة عثمان – رضي الله عنهما –، الإصابة(٧/ ٧٤٧).

(٤) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(٢٢).

(٥) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(١٣).

(٦) السّابق ص(١٥).

(٧) محمّد بن مسلم بن شهاب أبو بكر القرشي الزّهري المدني، الإمام العلم، أوّل من دوّن العلم وكتبه، واسع الرّواية، كثير الفقه، حافظ لا يُبارى، كان يقول: والله ما نشر أحد العلم نشري ولا صبر عليه صبري، توفّي سنة(١٢٤)هـ على الأرجح، السير (٥/ ٣٢٦).

(٨) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(١٥).

وقال الشّافعي [١] رحمه الله تعالى: «ما تُقُرّب إلى الله – عزّوجل – بعد أداء الفرائض بأفضل من طلب العلم»[٢].

وقال عليّ بن أبي طالب[٣] – رضي الله عنه –: «كفى بالعلم شرفاً أن يدّعيه من لا يحسنه، وكفى بالجهل ذمّاً أن يتبرّأ منه مَن هو فيه»[٤].

وقال أبو مسلم الخولاني[٥] – رحمه الله –: «مثَلُ العلماء في الأرض مثلُ النّجوم في السّماء، إذا بدت للنّاس اهتدوا بها وإذا خفيت عليهم تحيّروا»[٦].

---

(١) محمّد بن إدريس بن العبّاس القرشي ثم المطّلبي أبو عبدالله، الإمام عالم العصر ناصر الحديث فقيه الملّة، ساد أهل زمانه في الفقه، موصوف بالعقل والدّيانة حتى قال المأمون: قد امتحنت محمد بن إدريس في كل شيء فوجدته كاملاً، وهو مجدّد أمر الدّين على رأس المئتين، توفّي – رحمه الله – سنة (٢٠٤)هـ السّير (١٠/ ٥).

(٢) طبقات الشّافعيّة (٢/ ١٢٩).

(٣) الصّحابي الجليل زوج بنت رسول الله ﷺ فاطمة وأبو الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة ورابع الخلفاء الرّاشدين المهديين، أحد العشرة المبشّرين بالجنة وقيل إنه أوّل من أسلم، قال الإمام أحمد: «لم يُنقل لأحد من الصّحابة ما نُقل لعلي»، توفّي – رضي الله عنه – سنة (٤٠)هـ وهو يومئذ أفضل أهل الأرض من الأحياء بإجماع أهل السّنّة، الإصابة(٤/ ٥٦٤).

(٤) المجموع للنووي (١/ ١٩).

(٥) الدّاراني سيّد التّابعين وزاهد العصر، قال الذّهبي: اسمه على الأصح عبدالله بن ثوب، أسلم في أيّام النّبيّ ﷺ ودخل المدينة في خلافة الصّديق – رضي الله عنه –، وهو الّذي أوقد الأسود العنسي المتنبّىء باليمن عليه النّار فلم تضرّه، وكان عابداً مجاهداً، توفّي – رحمه الله – سنة (٦٢) هـ السّير (٤/ ٧).

(٦) المجموع للنووي (١/ ١٩).

وقال الشّافعي: «مَن أراد الدّنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم»(١)، وقال – أيضاً –: «مَن تعلّم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبُل قدره، ومن كتب الحديث قويت حُجّتُه، ومن نظر في اللّغة رقّ طبعه، ومن نظر في الحساب جزُل رأيه»(٢).

قال أبو العالية(٣): «كنت آتي ابن عبّاس، وهو على سريره، وحوله قريش فيأخذ بيدي، فيجلسني معه على السّرير، فتغامزني قريش، ففطِنَ لهم ابن عبّاس، فقال: كذاك العلم يزيد الشّريف شرفاً، ويجلس المملوك على الأسرّة»(٤).

وقيل: كان عطاء بن أبي رباح(٥) عبداً أسود لامرأة من مكّة، وكان أنفه كأنّه باقلاة، قال: وجاء سليمان بن عبدالملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلّي، فلمّا صلّى انفتل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج؛ وقد حوّل قفاه إليهم، ثمّ قال سليمان لابنيه: قوما، فقاما، فقال: يا بنيّ ! لا تنيا في طلب العلم؛ فإنّي لا أنسى ذلّنا بين يدي هذا العبد الأسود»(٦).

---

(١) المجموع للنّووي (١/ ٢٠).

(٢) طبقات الشّافعيّة (٢/ ٩٩).

(٣) رُفيع بن مهران الإمام المقرىء الحافظ المفسّر الرّياحي البصري أحد الأعلام، أدرك زمان النّبيّ ﷺ وهو شاب وأسلم في خلافة ابي بكر الصّدّيق – رضي الله عنه –، قال عن نفسه: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين، وقال: قرأت القرآن على عمر ثلاث مرّات، توفّي – رحمه الله – سنة (٩٠) أو (٩٣) هـ السّير (٤/ ٢٠٧).

(٤) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(١٨).

(٥) الإمام شيخ الإسلام مفتي الحرم أبو محمّد القرشي مولاهم المكّي،قال ابن المديني: سمعت بعض أهل العلم يقولون: كان عطاء أسود أعور أفطس أشلّ أعرج ثمّ عمي، وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، وقال الأوزاعي: مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند النّاس، توفّي – رحمه الله – سنة (١١٥) هـ السّير (٥/ ٧٨).

(٦) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(١٨).

وكان محمّد بن عبدالرّحمن الأوقص[١] عنقه داخلاً في بدنه، وكان منكباه خارجين كأنّهما زجّان فقالت له أمّه: يا بنيّ لا تكون في قوم إلاّ كنت المضحوك منه المسخور به فعليك بطلب العلم فإنّه يرفعك، قال: فطلب العلم، فوُلّي قضاء مكّة عشرين سنة، فكان الخصم إذا جلس بين يديه يرعد حتّى يقوم.

قال: ومرّت به امرأة يوماً وهو يقول: اللّهمّ اعتق رقبتي من النّار فقالت: يا ابن أخ وأيّ رقبة لك؟![٢].

وقال الحارث المحاسبي[٣]: «العلم يورث المخافة، والمعرفة تورث الإنابة»[٤].

قال ابن القيم[٥]: «ليسَ العالم شخصاً واحداً، العالِمُ عالَم، تصانيف العالم أولادُه المخلّدون دون أولاده»[٦].

---

(١) قاضي مكة، المحدث الفقيه، توفي سنة (١٦٩)هـ ترجمته في تاريخ دمشق (٥٤/ ١٠٢).

(٢) تاريخ دمشق (٥٤/ ١٠٥).

(٣) الحارث بن أسد البغدادي صاحب التّصانيف الزهديّة، له فقه وحديث غير أنّه دخل في شيء من علم الكلام والتّصوّف، فتكلّم الأئمّة فيه، توفّي – رحمه الله – سنة (٢٤٣) هـ السّير (١٢/ ١١٠).

(٤) طبقات الشّافعيّة الكبرى (٢/ ٢٨٢).

(٥) شمس الدّين أبو بكر محمّد بن أبي بكر بن أيوب الزّرعي الدّمشقي الفقيه إمام الجوزيّة وابن قيّمها، ولذلك سُمّي: ابن قيّم الجوزيّة، إمام وفقيه واسع العلم والتّصنيف أخذ العلم عن شيخ الإسلام ابن تيميّة وسُجن معه حتّى مات شيخه – رحمه الله –، وأفرج عنه، من أهمّ مصنّفاته (زاد المعاد) و(الصّواعق المرسلة) وغيرها، تُوفّي سنة (٧٥١)هـ.

(٦) الفوائد ص(٣٧٤).

ومن فضل العلم أنّه سبب لحسن الخاتمة إذا شُغلت به الأوقات، فقد رُوي أنّ أبا بكر بن السّنّي[١] كان يكتب الحديث فوضع القلم في المحبرة ورفع يديه يدعو الله تعالى فمات[٢].

أمّا بعد:

فإنّه لمّا عظُم شأن الفقه في الدّين، وتسنّم الفقهاء منه سنام السّناء، وكانوا قرّات الأعين، ولا تلِمّ بهم على كثرتهم أعين الأسوياء، فنعق بهم في أعصارنا ناعق الفناء، وتفانت بتفانيهم أندية ذاك العلاء، رأيتُ أن أستخير الله – تبارك و تعالى – وأستوفِقه، وأستعينه، وأستهديه، وأتبرّأ من الحول والقوّة إلاّ به، في تصنيف هذا الكتاب في الفقه لائق بالوقت، أفصح – فيه إن شاء الله – عن صفة الفقيه في دين الله، وشروطه، وأوصافه وأحكامه، وعن الفقه والتّفقّه، فرائضه، وآدابه، جامعاً فيه شمل نفائس التقطتها من خبايا الرّوايا، وخفايا الزّوايا، ومهمّات تقرّ بها أعين الفقهاء ويرفع من قدرها من كثرت مطالعاته من الفهماء.

أردتُ به تنبيه الطّلبة من أمثالي، وحثّ نفسي وأترابي، على الاجتهاد في طلب منازل الاجتهادِ، حسبةً لله، لا رغبةً في شرف دنيا، أو متاع زائل، وإنّما الاحتسابِ على الله في سدّ حاجة الأمّة من أهل العلم والفقهاء، الّذين يحفظ الله بهم الشّريعة، ويؤيّد بهم الدّين والملّة.

وغرضي أن يستقلّ المبرّز الّذي آتاه الله فهماً وفقهاً وسعة في الوقت بعلمه عن التّقليد، وأن ينزع حبلَ قياده من كلّ أحد ويضعه بيد المصطفى ﷺ فهو المتبوع المُقلّد وجوباً لا غير.

---

(١) الإمام الحافظ الثّقة الرّحّال أبو بكر أحمد بن محمّد بن إسحاق الهاشمي الجعفري، له كتاب (عمل اليوم والليلة)، وهو الّذي اختصر سنن النّسائي، وسمّاه (المجتنى)، توفي – رحمه الله – سنة (٣٦٤)هـ السّير (١٦/ ٢٥٦).

(٢) طبقات الشّافعيّة(٣/ ٣٩).

فلا يجوز لطالب العلم في طلبه أن يتبنّى[١] قولاً ولا رأياً، عن شيخ ولا فقيه حيّ أو ميّت؛ إلاّ بعرضه على كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ.

وقد صنّفت هذا الكتاب لخير الثّلاثة، كما رُوي عن عليّ – رضي الله عنه –: «يا كُميل[٢] إنّ هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير، النّاس ثلاثة: **فعالم ربّاني، و متعلّم على سبيل نجاة**، وهمج رعاع، أتباع كلّ ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق»[٣].

وقال أبو الدّرداء: «النّاس عالِمٌ ومتعلّم، ولا خيرَ فيما بين ذلك»[٤].

---

(١) ولا أقصد أن يتوقّف الطّالب عند كلّ مسألة فلا يبرح حتّى يحقّق القول فيها، ففرق بين تبنّي القول والتّديّن به والفتوى، وبين أن يتعلّمه علماً يحيط به بأصول العلم، ثمّ يكون بعد ذلك التّنقيح والتّحقيق، فمن أراد أن يدرس الفقه مثلاً لا يلزمه أن لا يتحرّك من مسألة أو قول في المذهب الّذي يدرسه إلاّ بعد تحقيق الصّواب فيها، أبداً بل المراد بدراسة المذهب أن يعرف الطّالب مسائل الفقه وأصول الأبواب وفروعها ومسائل الإجماع، وما يثره الفقيه بين تلك المسائل من مسلّمات أصول الفقه، وبعض فوائد اللّغة أو النّحو، ثمّ يتدرّج ويتوسّع في المذهب ثمّ يخرج بعد ذلك إلى الخلاف العالي ويكون تحقيق المسائل بعد ذلك بتوسع، فيكون مرادي إذن أن لا يفتي ولا يدين الله ديانة ويجادل إلاّ عمّا اجتهد لنفسه في تحقيق صوابه وألاّ يكون منافحاً عن رأي مذهب أو قول شيخ لا يدري دليله أويدريه ولا يعلم صوابه من خطئه فهذا هو التّقليد الّذي نهى عنه السّلف.

(٢) كُميْل بن زياد بن نهيك النّخعي الأصّبهاني الكوفي، تابعي ثقة، من أصحاب علي وشيعته، وكان شريفاً مطاعاً في قومه، قتله الحجّاج سنة (٨٢)هـ تهذيب الكمال (٢٤/٢١٨).

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص(٤٤٣) ورواه مطوّلاً المزّي في تهذيب الكمال (٢٤/ ٢٢٠).

(٤) روضة العقلاء (٤٠).

وقد كان الحسن البصري – رحمه الله – يقول: «دخلنا فاغتممنا، وخرجنا فلم نزدد إلاّ غمّاً، اللّهمّ إليك نشكوا هذا الغثاء الّذي كنّا نُحدّث عنه، إن أجبناهم لم يفقهوا، وإن سكتنا عنهم وكلناهم إلى عيّ شديد، والله لولا ما أخذ الله على العلماء في علمهم ما أنبأناهم بشيءٍ أبداً»(١).

فإذا كان هذا في عصور التابعين مع قرب عهدها من عصر النّبوّة فكيف الحال بنا !؟

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو(٢)مرفوعاً: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا، وأضلّوا**»(٣).

وفيهما – أيضاً – عن ابن مسعود مرفوعاً: «**إن بين يدي الساعة أياماً ينزل فيها الجهل، ويترك فيها العلم، يكثر فيها الهرج**»، والهرج: القتل(٤).

وفيهما أيضاً: «**إن من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل والزنا وشرب الخمر، ويقلّ الرّجال، ويكثر النّساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيّم الواحد**»(٥).

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر ص(٢٤).

(٢) عبدالله بن العاص بن وائل القرشي السّهمي أبو محمّد، صحابي هو وأبوه – رضي الله عنهما –، قال الطّبري كان طوالاً أحمر عظيم الساقين أبيض الرأس واللحية، أسلم قبل أبيه ولم يكن بينهما إلاّ اثنتا عشرة سنة، مكثر من الرّواية عن النّبيّ ﷺ مشهور بالعبادة والزّهد وله في ذلك مع النّبيّ ﷺ قصّة، توفّي – رضي الله عنه –وعن أبيه سنة(٦٥)هـ وقيل غير ذلك، الإصابة(٤/ ١٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في العلم (ح ١٠٠)، ومسلم في العلم أيضاً(ح ١٠٠).

(٤) أخرجه البخاري في الفتن(ح٧٠٦٣)، ومسلم في العلم (٢٦٧٢).

(٥) أخرجه البخاري في الحدود(ح٦٨٠٨)، ومسلم في العلم(ح٢٦٧١).

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً: «**يتقارب الزمان ويقبض العلم – وفي لفظ وينقص العلم – وتظهر الفتن، ويلقى الشّحّ، ويكثر، الهرج قالوا وما الهرج قال: القتل**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**هذا أوان يرفع العلم من الناس، فقال زياد بن لبيد: يا رسول الله وكيف وقد قرأنا القرآن ؟ والله لنقرأنه ولنقرِئّنه أبناءَنا ونساءنا، فقال: ثكلتك أمك يازياد إن كنتُ لأعدك من أفقه أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود فماذا يغني عنهم؟**»(٢).

وقال أبو الدرداء – رضي الله عنه –: «ما لي أرى علماءكم يذهبون، ولا أرى جهالكم يتعلّمون، ما لي أراكم تحرصون على ما قد تكفل لكم، وتدعون ما أمرتم به، تعلّموا قبل أن يرفع العلم، ورفع العلم ذهاب العلماء، لأنا أعلم بشرارِكم من البيطار بالفرس، هم الذين لا يأتون الصلاة إلا دبراً، ولا يقرؤون القرآن إلا هجراً»(٣).

وقال ابن مسعود – رضي الله عنه –: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة، يهرم فيها الكبير، ويربوا فيها الصغير، ويتخذها الناس سنة، فإذا غيرت قالوا غيرت السنة. قالوا متى ذلك يا أبا عبد الرحمن قال: إذا كثرت قراؤكم. وقلت فقهاؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلت أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (ح٨٥)، ومسلم في العلم (ح١٥٧) ورقم(١١) في كتاب العلم.

(٢) رُوي عن زياد بن لبيد أخرجه أحمد (ح١٧٠١٩)و(ح١٧٤٦٠) وابن ماجه(ح٤٠٤٨) وكذلك عن أبي الدرداء بلفظ (يُختلس) بدل يُرفع، أخرجه الترمذي في العلم(ح٢٦٥٣) والدارمي (ح٢٨٨)، وأخرجه الإمام أحمد (ح٢٣٤٧٠)، عن عوف بن مالك، وصححه الألباني في صحيح الجامع (ح٦٩٩٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف (ح٣٤٥٩٤).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف (ح٣٧١٤٥).

فاللهَ نسأل أن يفقّهنا في دينه، وأن يجعلنا ممّن اهتدى بنور العلم فعمِل، والتمس الحق فبِه حكم، وأخيراً فهذا جهد المقل، فإن أصبت في شيء منه فذاك هدى الله وتوفيقه فله الحمد وله الشّكر، وإن ضللت وأخطأت فمن نفسي الجهولة ومن الشّيطان وأستغفر الله.

منزلة الفقه ومكانة الفقيه

(الفِقه) **لغةً**: بكسر الفاء: العِلم بالشّيء والفَهم له، والفطنة،[١] فقِه فِقهاً: فَهِم، وفقُه فَقَاهةً: صار فقيهاً أي سريع الفهم.[٢]

قال ثعلب: يُقال في فقه الرّجل: «فَقُهَ» إذا كمل، و«فَقِهَ» إذا شدا شيئاً من الفقه.[٣]

أو هو فهم غرض المتكلّم من كلامه[٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء:٤٤] أي: لا تفهمون.

وقيل: هو دقّة الفهم، أو هو الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الّذي يتعلّق به الحكم[٥]، لكن يردّه قوله تعالى على لسان قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾[هود:٩١] مع أنّ كلام الأنبياء ليس فيه غموض بل هو في غاية البيان.

---

(١) القاموس المحيط (٤/ ٤١٤).

(٢) إكمال الأعلام بمثلّث الكلام لابن مالك (٢/ ٤٨٨).

(٣) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(٣٦).

(٤) التّعريفات للجرجاني ص(١٧٥).

(٥) التّعريفات للجرجاني ص(١٧٥).

وشرعاً: معرفة أحكام الله عقائد وعمليّات[١].

وقيل: معرفة الأحكام الشّرعيّة الّتي طريقها الاجتهاد[٢].

وفي اصطلاح الأصوليّين: هو العلم بالأحكام الشّرعيّة العمليّة من أدلّتها التّفصيليّة[٣].

فهو مصدر مرادف للفهم والعلم، لكن قال الآمدي[٤]: «أمّا الفقه ففي اللّغة عبارة عن الفهم.. وقيل: هو العلم، والأشبه أنّ الفهم مغاير للعلم، إذ الفهم عبارة عن جودة الذّهن، من جهة تهيّئِهِ لاقتناص كلّ ما يرد عليه من المطالب، وإن لم يكن المتّصف به عالماً كالعامّيّ الفطن..وعلى هذا فكلّ عالم فهم وليس كلّ فهم عالماً»[٥].

---

(١) الشّرح الممتع لابن عثيمين (١/ ١٠).

(٢) صحيح الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ص(٣٦).

(٣) التّعريفات للجرجاني ص(١٧٥).

(٤) أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمّد بن سالم التغلبي، سيف الدّين، صاحب المصنّفات ومنها أحكام الأحكام وأبكار الأفكار في الكلام وغيرها، قال ابن كثير: كان حنبلي المذهب ثم صار شافعياً أصولياً، وكان حسن الأخلاق سليم الصّدر كثير البكاء، رقيق القلب وقد تكلموا فيه باشياء، والّذي يغلب على الظّن أنّه ليس لغالبها صحّة انتهى، وقد ابتُلي بعلم الكلام، وناقشه شيخ الإسلام في مواضع كثيرة، وامتدحه الذّهبي بقوله: كان السّيف غاية، ومعرفته بالمعقول نهاية وكان الفضلاء يزدحمون في حلقته،توفّي سنة(٦٣١)هـ انظر السير (٢٣/ ٣٦٤) والبداية والنهاية(١٣/ ١٦٢).

(٥) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٦).

وما قاله الآمدي أَولى في رأيي، ونصوص القرآن تدلّ عليه، قال تعالى على لسان موسى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه:٢٧-٢٨]، قال العلاّمةُ القرطبي[١]: «أي:يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه، والفِقه في كلام العرب الفهم»[٢].

وعلم العقائد يُسمّى الفقه الأكبر كما سمّى الإمام أبو حنيفة كتابه: الفقه الأكبر[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام:٩٨]، قال ابن جرير الطّبري[٤]: «قد بيّنّا الحجج وميّزنا الأدلّة والأعلامَ وأحكمناها لقوم

---

(١) أبو عبدالله محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسّر، إمام متفنّن متبحّر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطّلاعه ووفور عقله وفضله، له كتاب التّفسير سمّاه الجامع لأحكام القرآن، وله كتاب التّذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة وغيرها، توفّي سنة (٦٧١) هـ.

(٢) الجامع لأحكام القرآن(١١/١٢٩).

(٣) وفي نسبته إليه كلام.

(٤) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، الإمام العلم المجتهد، عالم العصر أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، مولده سنة أربع وعشرين ومائتين وطلب العلم بعد الأربعين ومائتين، وأكثر الترحال، ولقي نبلاء الرجال، وكان من أفراد الدهر علما، وذكاء، وكثرة تصانيف. قل أن ترى العيون مثله، وقال الخطيب: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب: كان أحد أئمة العلماء، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، جمعت الرحلة بين ابن جرير، وابن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الروياني بمصر، فأرملوا ولم يبقَ عندهم ما يقوتهم، وأضر بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على ابن خزيمة، فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أصلي صلاة الخيرة. قال: فاندفع في الصلاة، فإذا هم بالشموع وخَصِي من قبل والي مصر يدق الباب، ففتحوا، فقال: أيكم محمد بن نصر ؟ فقيل: هو ذا. فأخرج صرة فيها خمسون دينارا، فدفعها إليه، ثم قال: وأيكم محمد بن جرير ؟ فأعطاه خمسين دينارا، وكذلك للروياني، وابن خزيمة، ثم قال: =

يفقهون مواقع الحجج ومواضع العِبَر ويفهمون الآيات والذّكر»[(١)]، وسياق هذه الآيات في إثبات توحيد الرّبوبيّة والاستدلال به على الألوهيّة.

وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة:١٢٢]، على القول بأنّ الفرقة القاعدة هي الّتي تفقه عن رسول الله ﷺ ما ينزل عليه من الأحكام فينذروا هؤلاء الّذين نفروا بما حدث بعدهم من أمور الدّين[(٢)].

والفقه عند العارفين: هو الإلهام والفهم الخاص الّذي هو ثمرة العبوديّة والمتابعة والصّدق مع الله، وبذل الجهد في تلقّي العلم من مشكاة رسوله ﷺ وكمال الانقياد له، أو قل هو البصيرة الّتي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف:١٠٨][(٣)].

= إن الأمير كان قائلا بالأمس، فرأى في المنام أن المحامد جياع قد طووا كشحهم، فأنفذ إليكم هذه الصُّرَر، وأقسم عليكم: إذا نفدت، فابعثوا إليّ أحدكم»، سير أعلام النّبلاء(١٤/ ٢٦٧).

(١) تفسير الطّبري (٥/ ٢٨٦).

(٢) انظر تفسير الطّبري (٦/ ٥١٢) وما بعدها.

(٣) تهذيب مدارج السّالكين لابن القيّم ص(٤٨٧).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩] قال القرطبي: «أي بمنزلة من لا يفقه، لأنّهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثواباً ولا يخافون عقاباً»(١).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠٦/٧)، وقال شيخ الإسلام – رحمه الله – «إن الله – سبحانه و تعالى – خلق القلب للإنسان يعلم به الأشياء كما خلق له العين يرى بها الأشياء والأذن يسمع بها الأشياء كما خلق له سبحانه كل عضو من أعضائه لأمر من الأمور وعمل من الأعمال.. فإذا استعمل الإنسان العضو فيما خلق له وأعد لأجله فذلك هو الحق القائم والعدل الذي قامت به السموات والأرض وكان ذلك خيراً وصلاحاً لذلك العضو و لربه و للشيء الذي استعمل فيه وذلك الإنسان الصالح هو الذي استقام حاله.. وإذا لم يستعمل العضو في حقه بل ترك بطالاً فذلك خسران وصاحبه مغبون وإن استعمل في خلاف ما خلق له فهو الضلال والهلاك وصاحبه من الذين بدلوا نعمة الله كفراً، ثم إن سيد الأعضاء ورأسها هو القلب: كما سمي قلباً، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**».. وإذ قد خلق القلب لأن يعلم به فتوجهه نحو الأشياء ابتغاء العلم بها هو الفكر والنظر... فالفكر للقلب كالإصغاء للأذن ومثله نظر العينين فيما سبق وإذا علم ما نظر فيه فذاك مطلوبه كما أن الأذن كذلك إذا سمعت ما أصغت إليه أو العين إذا أبصرت ما نظرت إليه، **وكم من ناظر مفكر لم يحصل العلم ولم ينله كما أنه كم من ناظر إلى الهلال لا يبصره ومستمع إلى صوت لا يسمعه**، وعكسه من يؤتى علماً بشيء لم ينظر فيه ولم تسبق منه إليه سابقة تفكير فيه كمن فاجأته رؤية = = الهلال من غير قصد إليه أو سمع قولاً من غير أن يصغي إليه وذلك كله لا لأن القلب بنفسه يقبل العلم وإنّما الأمر موقوف على شرائط واستعداد قد يكون فعلاً من الإنسان فيكون مطلوباً وقد يأتي فضلا من الله فيكون موهوباً، **فصلاح القلب وحقه والذي خلق من أجله هو أن يعقل الأشياء** لا أقول: أن يعلمها فقط فقد يعلم الشيء من لا يكون عاقلاً له بل غافلا عنه ملغيا له والذي يعقل الشيء هو الذي يقيده ويضبطه ويعيه ويثبته في قلبه فيكون وقت الحاجة إليه غنيا فيطابق عمله قوله وباطنه ظاهره وذلك هو الذي أوتي الحكمة. ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] وقال أبو الدرداء: إن من الناس من يؤتى علماً ولا يؤتى حكماً وإن شداد بن أوس ممن أوتي علماً وحكماً.. وقال فيما لكل عضو من هذه الأعضاء من العمل والقوة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا =

وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[الأنعام:٦٥]، قال الطّبري: «يقول: انظر يا محمّد بعين قلبك إلى ترديدنا حججنا على هؤلاء المكذّبين بربّهم الجاحدين نعمه وتصريفنا فيهم لعلّهم يفقهون: يقول: ليفقهوا ذلك ويعتبروه فيذّكّروا ويزدجروا عمّا هم عليه مقيمون ممّا يسخطه الله منهم»(١).

والمراد ممّا تقدّم أنّ العالم قد يكون فقيهاً باعتبار وغير فقيه باعتبار آخر، فمن النّاس من آتاه الله الفقه في الأحكام العمليّة لكنّه محروم من فقه القلوب والأعمال القلبيّة، ومنهم من أوتي فقهاً فيهما لكنّه واقع في البدع والمحدثات، ولهذا أمثلة كثيرة يأتي الإشارة إلى بعضها.

لكنّ الفقيه الأكمل هو من كمّل الله فيه الفقه في دين الله من كلّ جوانبه وهؤلاء قلّة في عصور التّاريخ الإسلامي، وأكمل نموذج وأتمّه كان على هذه الصّفة هم أصحاب النّبيّ ﷺ فقد كانوا هم الفقهاء حقّاً علماً وعملاً واعتقاداً وفهماً وتعمّقاً في مقاصد الشّرع الحنيف، وكلّما كان العالم أقرب إليهم في صفته؛ كان أكمل في فقهه في دين الله تعالى.

=لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[الأعراف:١٧٩]..فالقلب يعقل الأشياء بنفسه إذ كان العلم هو غذاؤه وخاصيته أما الأذن فإنها تحمل الكلام المشتمل على العلم إلى القلب فهي بنفسها إنما تحمل القول والكلام فإذا وصل ذلك إلى القلب أخذ منه ما فيه من العلم فصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب وإنما سائر الأعضاء حجبة له توصل إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه حتى إن من فقد شيئاً من هذه الأعضاء فإنه يفقد بفقده من العلم ما كان هو الواسطة فيه، فالأصمّ لا يعلم ما في الكلام من العلم والضرير لا يدري ما تحتوي عليه الأشخاص من الحكمة البالغة وكذلك من نظر إلى الأشياء بغير قلب أو استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قلب فإنه لا يعقل شيئا ; فمدار الأمر على القلب» الفتاوى (٩/ ٣٠٧) وما بعدها.

(١) تفسير الطّبري(٥/ ٢٢٤).

وإذا ميّزتَ ذلكَ، عرفت السّبب في شهرة الأئمة الأربعة وهيمنة آراء أصحابها واجتهاداتهم على الحياة العلميّة، ومن بعدهم بعض الأئمّة المشهود لهم في الفقه، وإنّما كان ذلك لما قدّمته لك من قربهم واقتدائهم في فقههم وعلمهم بالرّعيل الأوّل الّذي ربّاه نبيّ الله ﷺ وصنعه الله على عينه.

قالَ العلاّمةُ ابن الوزير – رحمه الله –: «وإنّما تميّز عن الأقران أفراد من الخلق، خواصّ منحهم الله الفهم والفطنة وآتاهم الفقه والحكمة، وقد وقع التّفاضل بين الصّحابة – رضي الله عنهم –: فكان عليٌّ – رضي الله عنه – أقضاهم، ومعاذ أفقههم، وأبيّ أقرأهم، وأبو هريرة أحفظهم، والخلفاء أفضلهم، وزيد أفرضهم، بل قد فاضل الله تعالى بين الأنبياء – عليهم السلام – قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٩] فهذا تفضيل في الفهم بين داود وسليمان – عليهما السلام– مع الاشتراك في النّبوّة، والتّقارب ما بين الأبوّة والبنوّة، وكذلك قد فاضل الله بينهم فيما هو دون هذه المرتبة، وذلك في البيان والفصاحة وضوح العبارة، مثل ما نصّ الله عليه من إيتاء داود فصل الخطاب، ومثل قوله تعالى في الحكاية لقول موسى في أخيه –عليهما السلام–: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القصص:٣٤].

وعموم التّفاوت الذي يدور عليه، وميزانه الذي يعتبر به في أغلب الأحوال هو: التّفاوت في صحّة الفهم وصفاء الذّهن واعتدال المزاج، وسلامة الذّوق، ورجحان العقل، واستعمال الإنصاف، فهذه الأشياء هي مبادىء المعارف، ومباني الفضائل، ولأجلها يكون الرّجل غنيّاً من غير مال،وعزيزاً من غير عشيرة، ومهيباً من غير سلطان، إلى غير ذلك من الصّفات الحميدة والنُّعوت الجميلة، ومن ههنا حصل التّفاوت الزائد، حتّى عدّ ألف بواحد، ومما أنشدو في ذلك:

ولم أر أمثال الرِّجال تفاوتـاً لدى المجدِ حتّى عدّ ألف بواحد»[١].

❊ مطلب: الفقه والإمامة

قلنا قبلُ: إنّ سبب شهرة الأئمّة الأربعة، وتميّزهم عن كثير من الفقهاء بالإمامة في الدّين، هو الشّموليّة في الصّفات وجمعهم لمقوّمات الإمامة في الدّين، فما هي مقوّمات الإمامة في الدّين؟ أهي كمال القوة العلميّة والعمليّة فقط ؟

يحسب كثيرٌ منّا أنّ الإمامة اكتساب، وأنّها فقط نتيجة الجدّ والعمل والمهارة العلميّة وصفات النّسك والتّقوى.

ومع أنّ هذه الصّفات لازمة لمن يكون إماماً للنّاس إلاّ أنّها لا تكفي لأن يكون الرّجل إماماً دون أن يجعله الله كذلك، وحتّى تتّضح الصّورة أعرض خمس آيات في كتاب الله تحدّثت عن الإمامة في الدّين:

١ - **قوله تعالى:** ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[البقرة:١٢٤].

استجاب الله تعالى لإبراهيم فجعله إماماً للمؤمنين، ومن ذرّيّته أئمّة للمؤمنين كذلك، والإمامة بمعنى القدوة أي الّذي يأتسي ويقتدي بأفعاله وأقواله غيره، فإن كان في الخير فهو إمام هدى وإن كان في الشّر فهو إمام ضلالة.

وعليه فإنّ لفظ الإمامة أوسع من النّبوّة، فكلّ نبيّ إمام وليس كلّ إمام نبي.

---

(١) الروض الباسم (١/ ٨٠).

وفي الآية أنّ الإمامة اصطفاء فلا يكون إماماً من لم يجعله الله كذلك، وإنّما يكون ذلك بالهداية لفعل الخير، واكتساب العلم، ونيل الرّضا عليه، فكم من عالم صالح ليس بإمام، والله أعلم بخفايا القلوب غير أنّ الأئمّة قليل.

وفي الآية إشارةٌ إلى استجابة دعائه في ذرّيّته؛ لأنّه استثنى الظّالمين، فإنّهم لا يناالهم عهد الله ووعده لإبراهيم بأن يصطفي من ذرّيّته أئمّة.

٢ - **قال الله تعالى:** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠].

الأمّة من النّاس: هو الجامع لخصال الخير، وقد اختلفت عبارات السلف في تفسير هذه اللّفظة، وتجتمع أقوالهم في أنّ الأمّة هو **الإمام المُقتدى به في الخير**، ولا يكون كذلك مالم يكن معلّماً لهم بالقول والفعل.

وفي وصف إبراهيم بالأمّة معنىً أشار إليه مجاهد بقوله: أمّةٌ على حدة، أي لوحده.

ففيه أنّ القدوة قد تتجزّأ، فقد يكون الرّجل قدوةً في العلم لا في العبادة، أو العكس، وقد يكون قدوةً في الحرب دون العلم، لكنّ ذلك لا يُوصف بالإمامة المطلقة، فلا يكون العبد أمّةً حتّى يجمع خصال الخير فيكون شبيهاً بإبراهيم، جامعاً لخصال الخير معلّماً لها، فيكون كأمّةٍ فيها من الرّجال من يتّصف بخصال من الخير لا تجتمع في واحد منهم لكنّها بمجموعها موجودة في الأمّة، وقد كان ابن مسعود - رضي الله عنه -يصف معاذاً - رضي الله عنه - بأنّه أمّة[1].

---

(١) تفسير ابن كثير(٤/ ٦١١).

وأنت إذا تمعّنت في الموصوفين بالإمامة في تاريخنا الإسلامي؛ تجدهم بهذه المثابة، فقد جمعوا رحمهم الله البروز في عامّة نواحي الخير وكانوا معلّمين لها وطرح الله لهم القبول في الأرض، فأصبحوا هم القدوات لعامّة المتسبين للإسلام؛ كالخلفاء الأربعة، والأئمّة الأربعة، وغيرهم ممّن شابههم وسار على دربهم.

وبالجمع بين هاتين الآيتين تعرف جانباً مهمّاً في الإمامة المطلقة، وأنّه من الخطأ إطلاق اسم الإمامة على من اشتهر قصورهم في نواحي مهمّة في الاعتقاد أو السّلوك أو غير ذلك.

٣ - **قال الله تعالى:** ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان:٧٤].

قال ابن جرير الطّبري: «معناه: واجعلنا للمتّقين إماماً يأتمّون بنا في الخيرات»[(١)].

وقد استدلّ بها بعض المفسّرين على استحباب طلب الرّياسة في الدّين، وهذا منهم استدلالٌ رائق، غير أنّهم لا يعنون أنّ يحارب الرّجل ليفرض إمامته على النّاس، ويتسمّى بها دون أن يسميه أحدٌ بذلك.

كما لا يعنون أن يلجأ أتباع كلّ مدّعٍ أو عالمٍ أو داعيةٍ إلى الغلوّ في صاحبهم وتفخيمه بوصفه بالإمامة المطلقة، مع ما قد يتّصف به من الخزايا الّتي لا تليق بمؤمنٍ عادي فكيف بإمام ؟!

بل هو دعاءٌ ضمني بأن يتقبّل الله منهم أعمالهم وأن يسدّدها ويصلحها وأن تكون صواباً على وفق ما يحبّه ويرضاه فإنّهم إذا كانوا كذلك كانوا جديرين بأن يمنّ الله تعالى عليهم فيضع لهم القبول في الأرض ويكونوا بذلك أئمّةً يُقتدى بهم.

---

(١) جامع البيان (٩/ ٤٢٥).

قال القرطبي: «كان القشيري يقول: الإمامة بالدّعاء لا بالدّعوى، يعني بتوفيق الله وتيسيره ومنّته، لا بما يدّعيه كلّ أحد لنفسه، وقال إبراهيم النّخعي:لم يطلبوا الرّياسة بل بأن يكونوا قدوةً في الدّين، وقال ابن عبّاس: اجعلنا أئمّة هدى»(١).

٤ - **قال الله تعالى:** ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء:٧٢-٧٣].

في الآية بيانٌ لاستجابة الله تعالى دعاء إبراهيم - عليه السّلام -، إذ جعل من ذرّيّته المباشرة أئمّةً يهدون.

قال الزّمخشري: «فيه أنّ من صلُح ليكون قدوةً في دين الله فالهداية محتومةٌ عليه مأمورٌ هو بها من جهة الله، ليس له أن يخلّ بها ويتثاقل عنها، وأوّل ذلك أن يهتدي بنفسه لأنّ الانتفاع بهداه أعمّ والنّفوس إلى الاقتداء بالمهدي أميل»(٢).

وفيها - أيضاً -:بيان سبب استحقاقهم للإمامة، وهو أنّه تعالى أوحى إليهم فعلَ الخيرات، وإقامَ الصّلاةِ، وإيتاءَ الزّكاةِ، وأنّهم امتثلوا هذه الأوامر، فكانوا عبّاداً له، فاستحقّوا أن يكونوا أئمّةً يُقتدى بهم في الخير.

فأساس الاصطفاء للإمامة هو التّوفيق للهدى والصّلاح، وبما أنّ السّبب يحتاج إلى إذن الله تعالى ورضاه فكذلك نتيجته.

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/٥٦).

(٢) الكشّاف(٣/ ١٢٤).

وفيها توضيح أنّ الإمامة لا تكون إلاّ بركنيها: العلم والعمل، فلا يكون الجاهل إماماً قط كما لا يكون الفاسق إماماً قط.

٥ - **قال الله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٣-٢٤].

فيها أنّ الله تعالى أثابهم على صبرهم ويقينهم بأن جعل منهم أئمّة: أي يُقتدى بهم في الخير، ففيه تنبيهٌ على أنّ الإمامة لا تُنال إلاّ بالعلم والعمل.

وأنّها لا تكون إلاّ بالدّعوة إلى الخير، ولذلك قال: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، قال القرطبي: «أي أمرناهم بذلك، وقيل: بأمرنا أي لأمرنا أي يهدون النّاس لديننا، ثمّ قيل: المراد الأنبياء عليهم السّلام، وقيل: المراد الفقهاء والعلماء»[(١)].

وكونهم العلماءُ والفقهاءُ أقرب للصّواب، لأنّ الأنبياء عليهم السّلام قُدُوات ينالون شرف النّبوّة دون ابتلاء متقدّم، بل يُهيّؤون من الله تعالى لذلك -، وأمّا الآية فأشارت إلى أنّ نيلهم الإمامة كان بعد صبر، قال القرطبي: «وهذا الصّبر صبر على الدّين وعلى البلاء»[(٢)]، والأنبياء ينالون النّبوّة قبل أن يعرفوا الدّين ويُبتلوا به والله تعالى أعلم.

وإذا تمعّنّا في الآيات السّابقة فإنّ الإمامة فيها جميعها كانت جعلاً من الله لا اكتساباً فقط، وأنا لا أتحدّث عن صفات الإمام وإنّما عن وسْمِه بسمة الإمامة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٧٣).

(٢) السّابق.

وفي أئمّة السّلف، يتجلّى لك المعنى الّذي أريد، فإنّهم – رحمهم الله – كانوا شديدي البعد عن الشّهرة، كارهين لها، وكثير منهم لم يجمعوا حولهم من التّلاميذ من ينشر أقوالهم، ولم يؤلّفوا كتباً، ومع ذلكّ أبى الله تعالى إلاّ أن يكونوا أئمّة.

لأنّ أولئك السّادة جمع الله لهم من صفات الإمامة ما لم يجتمع لغيرهم، فتجد الواحد منهم إماماً في العلم وإماماً في العمل وإماماً في الدّعوة إلى الخير، فإذا نظرت إلى بعدهم وبغضهم للتّرأّس والتّصدّر، وما وصل إليه حال النّاس في الاقتداء بهم عرفت أنّ الإمامة اصطفاءٌ من الله لا فرق بينها وبين النّبوّة من هذه الحيثيّة، غير أنّ النّبوّة أخصّ من الإمامة؛ **لأنّها لاتكون نتيجة لكسب العبد من العلم والعمل بل هي اصطفاء من الله تعالى.**

وهذه رسالةٌ لكلّ من جعل من نفسه أو غيره إماماً دون أن يتلمّح هذه المعاني، فكم من رجلٍ موصوفٍ بالإمامة على الألسنة لكنّه في الواقع والحقيقة مُهمل من الاقتداء به، ولا يُلتفت إليه في أسوةٍ ولا مشورة.

وخلاصة هذا المطلب أنّ الإمامة تحتاج إلى تسبّب وهذا صحيح لكن مع ذلك قد يترأّس الرّجل في العلم والعمل ولا يكون إماماً وهذا منظورٌ ومشاهد، أليس في تراجم العلماء السّابقين رجالٌ كثيرون موصوفون بالعلم والعمل، فهل كان كلّهم أئمّة ؟

الجواب: لا، لأنّه لم يكن لهم من الكمالات ما للأئمّة، على أنّه لا يخلو أحدهم من أن يكون إماماً في شيءٍ معيّن، غير أنّ كلامي في الإمامة المطلقة.

* مطلب: الفقهاء هم الدّعاة

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف:١٠٨].

لا شكّ أنّ الأمّة كلّها مأمورة في الجملة بالدّعوة إلى الله تعالى كلٌّ بحسب علمه وطاقته، كما قال ﷺ: «بلّغوا عنّي ولو آية»(١).

والدّعوة هي سبيل النّبيّ ﷺ، فمن دعا إلى الله بحسب استطاعته فهو من سالكي السّبيل السّوي، قال شيخ الإسلام(٢) رحمه الله: «فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه، وأصل ذلك عبادته وحده لا شريك له كما بعث الله بذلك رسله وأنزل به كتبه.

والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه، أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر.

ومما يبين ما ذكرناه: أنه – سبحانه – يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة وتارة بالدعوة إلى سبيله كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء(ح٣٤٦١) عن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنه –.

(٢) تقيّ الدّين أبو العبّاس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسّلام ابن تيميّة الحرّاني الدّمشقي، الإمام الأوحد المتفنّن المجدّد، صاحب التّصانيف الّتي نصر بها الملّة وأحيا بها السّنّة، لم يأتِ بعده من يبلغ مدّه ولا نصيفه، إمام مجتهد جدّد في كلّ النّواحي العلميّة والمنهجيّة وجاهد في عصره وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر حتّى امتُحن وسُجن أكثر من مرّة آخرها مكث في السّجن حتّى توفّاه الله تعالى سنة (٧٢٨)هـ ومؤلّفاته تُعدّ بالمئات – رحمه الله –، ترجم له أكثر من شخص ومن أجمعها كتاب العقود الدّريّة في مناقب ابن تيميّة لابن عبدالهادي.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1] [النحل:١٢٥] وذلك أنه قد علم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمرٍ؛ لا بدّ فيما يدعو إليه من أمرين:

أحدهما: المقصود المراد، **والثاني**: الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود، فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله وتارة إلى سبيله، فإنه سبحانه هو المعبود المراد المقصود بالدعوة.

وكل ما أَحَبّه الله ورسوله من واجب ومستحب من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله الأمر به، وكل ما أبغضه الله ورسوله من باطنٍ وظاهِر، فمن الدعوة إلى الله النهي عنه لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله ويترك ما أبغضه الله سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة.

إذا تبين ذلك: فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه، وهم أمته، يدعون إلى الله كما دعا إلى الله، وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به ونهيهم عما ينهى عنه وإخبارهم بما أخبر به، إذ الدعوة تتضمن الأمر وذلك يتناول الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر.

وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك، ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين.

وأمّا ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا، وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة، وبحسب غيره أخرى، فقد يدعو هذا إلى

---

(١) قال القاسمي – رحمه الله –: «أي بالمقالة المحكمة الصّحيحة، وهو الدّليل الموضح للحق المزيح للشّبهة، والموعظة الحسنة: أي العبر اللطيفة والوقائع المخيفة، ليحذروا بأسه تعالى، وجادلهم بالّتي هي أحسن: أي جادل معانديهم بالطريقة الّتي هي أحسن طرق المجادلة، من الرّفق واللين وحسن الخطاب من غير عنف، فإن ذلك أبلغ في تسكين لهبهم» محاسن التّأويل (٤/٥٥٨).

اعتقاد الواجب وهذا إلى عمل ظاهر واجب وهذا إلى عمل باطن واجب، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة وفي الوقوع أخرى[١].

وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، لكنها فرض على الكفاية وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول والجهاد في سبيل الله وتعليم الإيمان والقرآن.

وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.. وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين وجوب فرض الكفاية لا وجوب فرض الأعيان كالصلوات الخمس بل كوجوب الجهاد»[٢].

وأهل الدّعوة الحقيقيّون هم الفقهاء، أصحاب البصيرة في الدين، وهم أولى النّاس بدين الله، إذ هم ورثة الأنبياء – عليهم السّلام –، قال الإمام ابن القيّم – رحمه الله –: «فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خُصّوا باستنباط الأحكام، وعُنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهُم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ

---

(١) نص واضح وصريح يبيّن أنّ الدّعاة إلى الله يجب أن يتكاملوا لا أن يتناقضوا، فإذا برز رجل في جانب من الدّعوة وأبدع فيه لا يجوز أن يُنكر عليه تركه لجانب آخر، بل على الآخرين أن يسدّوا المجالات الأخرى، إذ يستحيل أن يستطيع شخص ما أن يحيط بكل جوانب الدّعوة ويبرز فيها فلا بد من التّنوّع والتّكامل، شريطة أن لا يكون التخصّص في جانب سببه إنكار أو إهمال الجانب الآخر فهنا يكون هذا نوع من الإحداث في دين الله.

(٢) الفتاوى (١٥/ ١٥٧ – ١٦٧) باختصار.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩] قال عبد الله بن عباس في إحدى الروايتين عنه، وجابر بن عبد الله، والحسن البصري، وأبو العالية، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك، ومجاهد في إحدى الروايتين عنه: أولو الأمر هم العلماء وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، وقال أبو هريرة، وابن عباس في الرواية الأخرى، وزيد بن أسلم، والسدي، ومقاتل: هم الأمراء، وهو الرواية الثانية عن أحمد.

والتحقيق أنّ الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبعٌ لطاعة العلماء، فإنّ الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء»[(١)].

ويتبيّن هذا بالنّظر في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، قال الشّيخ سليمان بن عبدالله بن محمّد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى: «إذا كان قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطفاً على الضّمير في ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهو دليل على أنّ أتباعه هم الدّعاة، وإن كان عطفاً على الضّمير المنفصل فهو صريح في أنّ أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم، والتّحقيق أنّ العطف يتضمّن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة الّذين يدعون إلى الله»[(٢)].

---

(١) أعلام الموقعين (١/ ٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد ص(١٢٣).

وما تأثّرت الدّعوة بشيء تأثّرها بفقدان ريادة الفقهاء لها، قال أيّوب السختياني[١]: ما أمات العلم إلاّ القُصّاص، إنّ الرّجل ليجلس إلى القاص برهة من دهره فلا يتعلق منه بشيء، وإنّه ليجلس إلى الرّجل العالم ساعة فما يقوم حتى يفيد منه شيئاً»[٢].

وقال الدكتور ناصر العقل: «ولا ينبغي أن **يتصدر**[٣] الدعوة إلى الله، ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا العلماء الأجلاء، الذين يفقهون الدين، ويأخذون عن أصوله، على منهج سليم صحيح، وإلا فليس كل من حُشي ذهنه بالمعلومات الثقافية والأفكار يكون إمامًا في الدين؛ لأنه قد يوجد من الفسقة بل من الكفرة من يعلم من فرعيات الدين الشيء الكثير، وقد وُجد من المستشرقين من يحفظ بعض الكتب الكبيرة في الفقه الإسلامي، بل حتى منهم من يحفظ القرآن، ويحفظ صحيح البخاري، ويحفظ بعض السنن ونحو ذلك، فهذا الصنف يحفظ العلم لكن لا يفقه من الدين شيئًا، وكذا بعض من يدعي الإسلام، قد يكون عنده من المعلومات الشيء الكثير، لكن لا يفقه منهج التلقي والعمل والتعامل والتزام السنة، ولم يأخذ الدين على منهجه الصحيح، وعلى العلماء الربانيين، فصار يفتي بغير علم، ويوجه بلا فقه، ويجمع بلا عقيدة سليمة»[٤].

---

(١) الإمام الحافظ سيّد العلماء أبو بكر بن أبي تميمة كيسان العنزي مولاهم البصري الأدمي، العابد الزّاهد الأثري، كان شديداً على أهل البدع متّبعاً للسّنّة منافحاً عنها وهو من سادات عصره – رحمه الله – وفضائله أكثر من تُذكر، توفّي سنة (١٣١) هـ السّير (٦/ ١٥).

(٢) الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع للخطيب (٢/ ٢٣٥).

(٣) أي أن يكون صدرا بمعنى أن يكون موجِّهاً ومرجعاً في الدّعوة يُنتهى إلى رأيِه وأمره.

(٤) الافتراق، أسبابه وسبل الوقاية منه، نسخة إلكترونية، وانظر رسائل ودراسات في الأهواء والافتراق والبدع (١/ ٣٠٨).

وإذا كان الأمر كذلك وجب على أهل الفقه أن يعرفوا أقدارهم، **وأن يتصدّروا المجال الدّعوي**، ولا يتركوه عبثاً بيد الجهلة يفتون النّاس بغير علم ولو كان بحسن نيّة، لأنّ الأمر يتعلّق بالدّين والحفاظ عليه، وإذا كان أصل الدّعوة وشرعيتها للحفاظ على الدّين، فالواجب أن تكون الدّعوة برموزها ومضامينها محقّقة لهذا الهدف النّبيل، وهذا لا يكون أبداً مع تصدّر الجهّال في السّاحة الدّعويّة واستحواذهم بالمجال وإمساكهم بدفّة التّوجيه، وهم إذا كانوا محتسبين وبذلوا ما يستطيعون – ولم يتعدّوا إلى القول على الله بلا علم – فلهم أجرهم والله يعفو عنهم والوزر يتحمّله الفقهاء إذا نكلوا عن الواجب وتخلّوا عن المسؤوليّة، والله المستعان.

* مطلب: الفكر الإسلامي وعلاقته بالفقه

عرَفنا الفقه فيما سبق، وعرَفنا مجاله في الشّرع والدّعوة إليه، ولكن مصطلح (الفكر الإسلامي) ما هو ؟ وما حقيقته ؟

في الحقيقة الأمر لا يستحق الكثير من الكلام فيه بالنّظر إلى واقع هذا المصطلح من خلال أصحابه، وبدون تعقيد نقول: المفكّر هو من يعمل عقله في الرّبط بين قضايا معيّنة للوصول إلى نتائج سابقة أو لا حقة، يقول ابن القيّم رحمه الله:«الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة[١]»، ويقول:«التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها»[٢].

وللحق فإنّ مصطلح الفكر الإسلامي ينبغي أن نتعامل معه بكثير من الحذر، حتّى لا تختلط المفاهيم، ويحصل في الواقع الدعوي عمليّات احتلال ثقافي قسري للمواقع.

---

(١) مفتاح دار السعادة، (١/ ٢٦٣).

(٢) مفتاح دار السعادة، (١/ ٣٠٥).

أعني أنّ المفكّر باختصار شديد أهمّ ما يميّزه عن غيره – إضافة إلى القدرة على التحليل – قوة البيان، لا أعني بذلك أدوات البيان اللغويّة، وإنّما القدرة على التّعامل بالمصطلحات والألفاظ على نحو دقيق، يحلّل الأمور المعقّدة، ويربط بين الأمور المتباعدة، وينسقها في نسق واحد فتتّضح للقارىء صورة واضحة لقضيّةٍ مّا، كانت قبل ذلك تكسوها الضّبابيّة والتّعتيم.

وهذا البيان في الحقيقة سلاح ذو حدّين، استعمله المنافقون لإبطال الحق، واستعمله الإسلاميّون في إحقاق الحق وإبطال الباطل.

والّذي يسّر ذلك على كلا الفريقين أنّ المواضيع الّتي يتناولها الفكر عمومات وكلّيّات سهلة الفهم والتّناول من كلا الفريقين.

ولأنّ الإسلاميّين أكثر اقتناعاً بقضايا الإسلام الكلّيّة فقد استطاعوا أن يوظّفوا براعتهم في البيان والتّحليل لصدّ عدوان المنافقين على الثّقافة الإسلاميّة ومصادرها.

يبقى أن يُقال: إنّنا وإن ارتضينا مصطلح (المفكّر الإسلامي)كنوع من التّمييز عن المفكّر غير الإسلامي: فإنّ ذلك لا يعني الإقرار بمصطلح (الفكر الإسلامي)، لااعتراضاً على اللّفظ، وإنّما لأمرين مهمين في نظري:

أوّلهما: الابتعاد عن أيّ وهم يمكن أن يتسرّب للأذهان أنّ أمور الاعتقاد ومسائل الوحي والنّبوّة هي من المسائل الفكريّة القابلة للتّفكّر في صحّتها أو بطلانها، لأنّها من صنع المفكّر واجتهاداته، وهذا يحدث بسبب كثرة مطالعة هذه المعتقدات من خلال الكتب الفكريّة دون كتب السّنّة والتّفسير.

فينبغي على هذا أن نركّز في تلقّي العقيدة وأمور الإيمان على مصادر الوحي من القرآن والسّنّة، ونستفيد من الكتب الفكريّة في التّعرّف على مذاهب المخالفين المعاصرين وجهود الإسلاميّين في كشف عوراها والرّدّ عليها.

ثانيها: حتّى لا يُظن مع الزّمن أنّ الفكر الإسلامي علم قائم بذاته له فنه وأصوله كالفقه، ويحدث نوع من التّمييز لأصحاب الفكر الإسلامي كأصحاب علم شرعي، وهذا خطأ جسيم، بل المفكّر المسلم هو صاحب علم شرعي ومعلومات عن الإسلام وظّف بيانه وإتقانه لأدوات البيان العصريّة في بيان محاسن الدّين والرّدّ على المخالفين.

وهذا المفكّر قد يكون من أهل العلم بالدّين؛ فحينئذ هو عالم وصاحب علم شرعي فيغلب عليه وَسْم العلم ووصفه ويكون من أهل الفتوى في الدّين.

وقد يكون مثقّفاً – فقط – فلا يصحّ منه الفتوى والقول في مسائل العلم الدّقيقة؛ الّتي لا يحسنها إلاّ أهل العلم، مع الاحتفاظ له بالحق في الكلام عمّا يعلمه من أمور الإسلام وأصوله الكلّيّة.

ونخلُص من هذا أنّ ما يُسمّى بالفكر الإسلامي لا يملك مضموناً متميّزاً يستحق به صاحبه تميزاً علمياً، بل قدرة وملكة نفسيّة ذهنيّة على الرّبط والتّحليل يستمدّ مضمونه من العلم الشّرعي، وعليه فالعلم والفقه هو الأصل والأساس، فكلّما كان المتفكّر أكثر علماً كلّما صلَحَ وأصلحَ، وكلّما كان أبعد عن العلم الشّرعي وأدوات الفقه كان أقلّ صلاحاً وإصلاحاً.

ولذلك تجد بعض من ينتسبون إلى الفكر الإسلامي يقدّرون هذه الحقيقة فلا يخوضون إلاّ في مسائل عامّة يملكون علمها وحقيقتها وتصوّرها تصوّراً دقيقاً ولا يتطرّقون للفتيا في مسائل العلم، وهؤلاء هم الّذين قدّموا للجيل ثمرة فكرهم فاستفاد النّاس منهم وردّ الله بهم عن الجيل شراً عظيماً ولا يُقاس خطؤهم إلى جانب صوابهم وعظيم نفعهم.

والبعض الآخر تعاظم في نفسه فأصبح يخوض فيما لا قبل له به فأفتى بغير علم فضلّ وأضل، فأصبح ما انتفع الناس به منهم لا يظهر بجنب ما أفسدوا وبدّلوا في عقائد النّاس ومسائل العلم الّتي ضلّ بهم فيها خلق كثير فالله المستعان.

قال الدكتور ناصر العقل – حفظه الله –: «بل إن الوسائل هذه أوجدت عندنا صورًا ممسوخة لمن يسمون بالمثقفين، وعندهم من المعلومات ما يعجب الناس ويبهرهم لكنهم لا يقرون بأصل، ولا يفهمون منهج السلف، ويجدون من يقتدي بهم بغير علم، وهذا الأمر أو هذه الظاهرة كثُرت بشكل مزعج، حتى وجد من هذا الصنف أناس يتصدرون الدعوة إلى الله، وتوجيه الشباب على هذا النمط، لمجرد أنهم يملكون من المعرفة والثقافة العامة ما يبهر السُذَّج، وعندهم كمٌّ هائل من المعلومات الشرعية، دون معرفةٍ للضوابط، ولا للأصول، ولا للمناهج، ولا لكيفيات التطبيق وكيفيات العمل، ولا لطريقة أئمة الدين في تناول مسائل العلم وتطبيقها على النوازل والحوادث»[1].

ولمثل هذا أصبح من المهم معرفة علاقة الفكر بالفقه، وأنّه لا علاقة بينهما ألبتّة إلاّ من حيث يستفيد كل منهما بالآخر، فليس الفكر فقها، وليس الفقه فكراً، بل الفقه كلّه خير، والفقه لا يأتي إلاّ بالخير، وأمّا الفكر وما يُنسب إليه ففيه سمين قليل وغثّ كثير، وإذا كان كذلك فلننظر في علاقة الفقه بالفكر في مجال الدّعوة الإسلاميّة.

١() الافتراق، أسبابه وسبل الوقاية منه، نسخة إلكترونية.